غزوات المصطفى ﷺ

(٩)

غَزْوَةُ خَيْبَرَ..

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

« هٰذِهِ القَرْيَةُ الظَّالِمُ أَهْلُهَا »

وَصَلَ الخَبَرُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِأَنَّ (سَلاَّمَ بْنَ مِشْكَمَ) زَعيمَ يَهودِ خَيْبَرَ ، رَاحَ يُحَمِّسُ اليَهُودَ ، وَيَتَّصِلُ مَعَهُمْ ، وَيُحَرِّضُهُمْ عَلَىٰ الالْتِفَافِ حَوْلَهُ ، وَذٰلِكَ بِهَدَفِ القَضَاءِ عَلَىٰ المُسْلِمينَ في المَدِينَةِ المُنَوَّرَةُ ، عِنْدَئِذٍ رَاحَ الرَّسُولُ يُعِدُّ المُسْلمينَ لِمُواجَهَةِ يَهودِ خَيْبَرَ! وَالَّذي يَسَّر ذلكَ علىٰ المُسلمينَ أَكْثَرَ هُوَ أَنَّ صُلْحَ الحُدَيْبِيَةِ قَدْ أَمَّنَ لَهُمْ أَهْلَ قُرَيْشٍ وَكُلَّ الجَنُوبِ أَيْضاً .

عِنْدَئِذٍ نَدَبَ الرَّسُولُ المُسْلِمينَ للتَّهيُّؤِ لِغَزْوِ

خَيْبَرَ : « تَجَهَّزُوا إِلىٰ هٰذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَاتِحُها عَلَيْكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ » .

وَأَرْسَلَ أَحَدُ المُنَافِقِينَ رِسَالةً لِيَهُودِ خَيْبَرَ يُعْلِمُهُمْ فِيها عَزْمَ رَسُولِ اللهِ عَلَىٰ غَزْوِهِمْ ، فَمَا كَانَ مِنَ اليَهُودِ إلاَّ أَنِ اسْتَنْفَرُوا قُرَابَةَ عَشْرَةِ آلافِ مُقَاتِلٍ ، وَرَاحُوا يَتَدَرَّبُونَ عَلَىٰ فُنونِ القِتَالِ ، وَهُمْ يَقُولُونَ : مُحَمَّدٌ يَغْزُونا ؟ هَيْهاتَ... هَيْهاتَ!!

وَأَدْخَلُوا نِسَاءَهُمْ وَأَوْلادَهُمْ وأَمْوَالَهُمُ الحُصُونَ المنِيعَةَ ، وَعَزَمُوا عَلَىٰ مُقَاتَلَةِ المُسْلِمِينَ مِنْ وَرَاءِ الحُصُونِ ، وَهٰذِهِ طَبِيعَتُهم ، فَهُمْ أَجْبَنُ شَعْبٍ ، مِصْداقُ ذٰلِكَ قَوْلُه تَعَالَىٰ : ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر : ١٤] .

وَفِي الطَّرِيقِ إِلىٰ خَيْبَرَ..

وَسَارَ المُسْلِمونَ باتِّجَاهِ خَيْبَرَ ، وَكانَ عَدَدُهُمْ أَلْفاً وَخَمْسَمِئَةٍ ، فِيهِمْ ثَلاثُمِئَةِ فَارِسٍ ، وَكَانَ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم يُكْثِرُ مِنْ هٰذا الدُّعَاءِ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ ، وَالبُخْلِ وَالجُبْنِ ، وَغَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ » .

بينَمَا كَانَ المُسْلمونَ يَرفَعُونَ أَصْواتَهُمْ بِشِعَارِ : اللهُ أَكْبَرُ ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ ، وَكَانَ (عَامِرُ بْنُ الأَكْوَعِ) شَاعِراً ، فَلَمَّا رآهُ رَسُولُ اللهِ

صَلواتُ اللهِ عَلَيْهِ قالَ لَهُ : « يَا عَامِرُ أَلاَ تُسْمِعُنَا مِنْ هُنيهاتِكَ » .

فَارْتَجَزَ عَامِرٌ قائلاً :

وَاللهِ لَـوْلا اللهُ مَـا اهْتَـدَيْنَـا

وَلاَ تَصَـدَّقْنَـا وَلاَ صَلَّيْنَـا

إِنَّـا إِذَا قَـوْمٌ بَغَـوْا عَلَيْنَـا

وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَـةً أَبَيْنَـا

فَـأَنْـزِلَـنْ سَكِينَـةً عَلَيْنَـا

وَثَبِّـتِ الأَقْـدَامَ إِنْ لاَقَيْنَـا

حَتَّىٰ إِذَا مَا شَارَفَ المُسْلِمُونَ عَلَىٰ حُصُونِ خَيْبَرَ ، التَفَتَ الرسولُ ﷺ نَحْوَ المقاتلينَ ، وَبَشَّرَهُم قَائلاً : « إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ المُنْذَرِينَ » .

* * *

وَسَقَطتِ الحُصُونُ!!

وَابْتَدَأَتِ المُنَاوَشَاتُ ، وَأَبْلَىٰ اليَهُودُ مِنَ الدَّاخِلِ بَلاءً شَدِيْداً ، لٰكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ كَتَبَ النَّصْرَ لأُمَّةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَانْطَلَقَ الصَّنَادِيدُ الأَبْطَالُ مِنَ المُسْلِمِينَ ، يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ ، لا يَبْتَغُونَ مَالاً وَلا مَنْصِباً ، إِنَّما يَبْتَغُونَ شَيْئاً وَاحِداً : هُوَ الجَنَّةُ ، وَفَوْقَها رِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ .

وَسَقَطَ حِصْنُ مَراماةَ ، فَحَاصَرَ المُسْلمونَ الحُصُونَ الأُخْرىٰ ، فَفُتِحَ لَهُمْ حِصْنُ الشِّقِّ ، ثُمَّ سَقَطَ حِصْنُ الكَتِيْبَةِ .

حَتَّىٰ تَجَمَّعَ اليَهُودُ فِي أَكْبَرِ حِصْنٍ مِنْ حُصُونِهِمْ ، وَهُوَ حِصْنُ خَيْبرَ ، وَأَقْسَمُوا عَلَىٰ الدِّفَاعِ عَنْهُ حَتَّىٰ المَوْتِ .

وَفِي إِحْدَىٰ اللَّيالي العَصِيبَةِ ، قالَ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم : « لأُعْطِيَنَّ الرايَةَ غَداً رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ عَلَيْهِ ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ » .

وَرَاحَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ المُسْلِمينَ يَتَمَنَّىٰ أَنْ يَكُونَ هُوَ ذَاكَ .

. وَفي الصَّبَاحِ أَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بِأَنْ يُؤْتَىٰ بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَلَمَّا جَاءَ رَآهُ مَرِيضاً في عَيْنيهِ فَدَعَا لَهُ الرَّسُولُ وَمَسحَ عَلَيْهِمَا ، وَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ ، وَقَالَ لَهُ : « انْفُذْ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلىٰ الإِسْلامِ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ

مِنَ حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ ، فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ » .

وَسَارَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَعَ عَدَدٍ كبيرٍ مِنَ المُسْلِمينَ ، وَحَاصَرُوا حِصْنَ خَيْبَرَ ، وَشَاءَ اللهُ لَهُمُ الفَتْحَ وَالنَّصْرَ ، فَفُتِحَ الحِصْنُ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ .

عِنْدَئِذٍ طَلَبَ اليَهُودُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُصَالِحَهُمْ عَلَىٰ أَنْ يَعْمَلُوا في أَرْضِهِمْ ، ويُقَدِّمُوا لِلْمُسْلِمينَ نِصْفَ الثَّمَرِ ، وَوَافَقَ الرَّسُولُ قَائِلاً : « نُقِرُّكُمْ عَلَىٰ ذٰلكَ مَا شِئْنَا » .

وَقَسَّمَ رَسُولُ اللهِ الغَنَائِمَ بَيْنَ المُسْلِمينَ المُحَارِبينَ ، وَكَانَ مِنَ السَّبَايَا (صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيِّ ابْنِ أَخْطَبَ) ، فَأَعْتَقَهَا رَسُولُ اللهِ بَعْدَ أَنْ أَعْلَنَتْ إِسْلاَمَها ، ثُمَّ تَزَوَّجَها... ، وَبَقِيَ يَهُودُ خَيْبَرَ في

أَمَاكِنِهِمْ حَتَّىٰ خِلافَةِ عُمَرَ رضيَ اللهُ عَنْهُ ، حَيْثُ أَجْلاهُمْ عَنْ بلادِ الحِجَازِ إِلىٰ بِلادِ الشَّامِ...

* * *

وَاكْتَمَلَتِ الفَرْحَةُ..

وَبَيْنَما المُسْلِمونَ يَعِيشُونَ فَرْحَةَ الانْتِصَارِ عَلَىٰ يَهُودِ خَيْبَرَ ، إِذَا بِالمُسْلِمينَ الَّذِيْنَ كانُوا في الحَبَشَةِ يصِلُونَ إِلىٰ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ .

وَلَمَّا رَأَىٰ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم (جَعْفَرَ بْنَ أَبي طَالِبٍ) رَضِيَ الله عَنْهُ وَمَعَهُ المُسْلمونَ القادِمُونَ ، قَالَ : « ما أَدْري بأَيِّهِما أَنَا أُسَرُّ ، بِفَتْحِ خَيْبَرَ أَمْ بِقُدومِ جَعْفَرَ » .

ثُمَّ أَبْلَغُوهُ صَلواتُ اللهِ عَلَيهِ أَنَّ النَّجَاشِيَّ ـ مَلِكَ الحَبَشَةِ ـ قَدْ أَعْلَنَ الشَّهادَتَيْنِ ، وَأَنَّهُ طَلَبَ مِنَ الرَّسُولِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ ، فَرَفَعَ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ يَدَيْهِ وَقَالَ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلنَّجَاشِيِّ » .

عَظْمٌ يَتَكَلَّمُ!!

وَجَاءَتِ امْرَأَةٌ يَهُودِيَّةٌ (زَيْنَبُ بِنْتُ الحَارِثِ) إِلىٰ المُسْلِمينَ ، وَسَأَلَتْهُمْ : أَيُّ عُضْوٍ مِنَ الشَّاةِ أَحَبُّ إِلىٰ رَسُولِ اللهِ ؟

فَقِيلَ لَهَا : الذِّرَاعُ ، فَأَكْثَرَتْ فِيها مِنَ السُّمِّ ، ثُمَّ سَمَّتْ سَائِرَ الشَّاةِ ، ثُمَّ جَاءَتْ بِهَا مَطْبُوخَةً ، فَلَمَّا وَضَعَتْها بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم تَنَاوَلَ الذِّرَاعَ ، فَلاَكَ مِنْها مُضْغَةً ، فَلَمْ يَسْتَسِغْها ، وَكانَ مَعَهُ (بِشْرُ بْنُ البَرَاءِ) ، فَأَخَذَ بِشْرٌ مِنْها كَمَا أَخَذَ رَسُولُ اللهِ .

فَأَمَّا بِشْرٌ فَأَسَاغَها ، وَأَمَّا رَسُولُ اللهِ فَلَفَظَها ،

ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ هَذَا العَظْمَ لِيُخْبِرُني أَنَّهُ مَسْمُومٌ » .

ثُمَّ دَعَا بِالمَرْأَةِ اليَهُودِيَّةِ ، فَسَأَلَها عَنْ سَبَبِ فِعْلَتِها ؟ فَقَالَتْ : أَحْبَبْتُ إِنْ كُنْتَ كَاذِباً أَنْ أُرِيحَ النَّاسَ مِنْكَ ، وَإِنْ كُنْتَ صَادِقاً عَلِمْتُ أَنَّ اللهَ سَيُطْلِعُكَ عَلَيْهِ! وَمَاتَ (بِشْرٌ) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنَ السُّمِّ ، فَقَتَلَ رَسُولُ اللهِ اليَهُودِيَّةَ لِذَلِكَ .

* * *

« هٰذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ »

وَبَعْدَ أَنْ أَقَامَ المُسْلِمُونَ في خَيْبَرَ أَرْبَعِينَ يَوْماً ، تَوَجَّهُوا نَحْوَ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ ، وَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَيْها ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « آيبُون تَائبونَ ، عَابِدُون لِرَبِّنَا حَامِدُونَ » .

وَلَمَّا بَدَا لَهُ جَبَلُ أُحُدٍ ، الْتَفَتَ رَسُولُ اللهِ إِلَىٰ الجَيْشِ ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنْ قِفُوا ، ثُمَّ قَالَ : « هٰذِهِ طَيْبَةُ ، وَهٰذَا أُحُدٌ ، أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ » .

وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ رَسُولِهِ صَلَواتُ اللهِ عَلَيهِ سُورَةَ النَّصْرِ ، وَفِيهَا دَلالَةٌ عَلَىٰ انْتِصَارِ الرَّسُولِ وَالمُسْلِمِينَ في خَيْبَرَ وَغَيْرِهَا : ﴿ إِذَا

جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر : ١-٣] .

وآخرُ دعْوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ

* * *